قصة قصيرة

خريف ميلاد محتمل

• مصطفى الكيلاني •

المرآة في المرآة رحم مهجور بَنَتْ فيه الطيور الغريبة أعشاشها ثم هاجرت.

ضحكت من الريش المتناثر وأوراق الصفصاف وتثاؤب البحر يلفظ آخر أنفاسه في خريف عام مجدب وكان الماء بين الزرقة والسواد رئة يتنفس بها شارع النزل على امتداد البصر.

كاد الحاكي يختنق في قيلولة ذلك اليوم، والقلم على الطاولة حصان سقط من أعلى التل فانكسر عنقه وساح الصهيل على الورقة المرآة.

قدموا على ظهور الجياد واللبات في تماوج النسيم بحر أسبح في قيعانه قبل ظهور الاحتمال بقرون. ويشهد ذلك بصحة أخبارها.. ناديتها: «يا امرأة العشق القديم ناوليني منديلك فهذا عنقي اشتاق إلى الصديد.. لا تبخلي عليّ بصورة الشجر الحزين يرقص في عويل الريح والنجوم تحتجب لتغرق القبور في ظلام عينيك المتعبتين».

وأومأت إلي بالبنان.. قلت: «تلك امرأة جنوني أبصرتها في الليلة الثانية بعد العيد عندما غرقت قلوب الأطفال في حزن كأنه الحب يهلك أو الأعشاش تهجر أو الجندي تأكل النار عينيه في لحظة الانتصار».

وتعلمت من وجهها الغائم أن البحر لن يعمر بل سيقبر يوماً بعد انفجار البراكين، والسماء سينشق صدرها ويسقطها اللهاث في ذاكرة الزمن الغائب وسأكون في حجم الفراغ الذي خمرني يوماً وطواني ثم رماني في بحر هذا الزمن.

وتعلمت من صمتها حقائق الليل، فسخرت منهم يركبون الوهم ويحلمون وهم في سعير التيقظ لا يبصرون وجوههم والمرآة.. فكرت مرة في إزاحة الأقنعة.. كانوا في قاعة كبرى يجلسون فرادى، والضوء الشاحب طريد الظلمة، والسقف خيال صورة لم أعد أذكرها أو يشبه رقعة شطرنج، والبيادق رؤوس فئران، وفي الركن المقابل يجلس رجل ضخم الجثة على رأسه سطل تآكلت حافته وتشقق من الأسفل يُعدّ قطعاً نقدية، وفي النافذة القريبة منه يوم تلتقط فتات ذاكرة وجوقة الليل تعزف لحناً يتخلله شهيق أنثى تهلك بين عاشقها والسيف. ويجلس حذو الممر المؤدي إلى الحديقة باحث يجري عملية جراحية على قصيدة كتبها شاعر مجنون قبل أن يهلك بعام واحد.. فتح بطنها بمشرطه ثم أسرع في خلخلة الرأس فانكسر العنق ودوت الصيحة في سرداب القاعة.. لم ييأس. واصل التشريح بحماس مهنته الأولى، وتخيل جسد القصيدة عشرات الخرفان تذبح والثيران تشحط، وهبط بجثته على الجسد يفكك أجزاءه وجوقة الليل تعزف الجزء الثاني من اللحن الخالد، والبوم ترقص بين الزجاج والقضبان..

عشرات الرجال يجلسون فرادى، يسهرون في القاعة الكبرى.. خفت أن أضيع امرأة جنوني فينطفىء ضوء الفانوس وتغيم القاعة في زحمة الشارع ولا أرى تلك الوجوه. ناديتها: «يا امرأة السهول البعيدة استيقظي فقد يبتلعني الزحام» ألقت إليّ بمنديلها، بسطته لأقرأ ما فيه من حروف قبل أن تشرق الشمس وأدفع إلى الموت من جديد.. لمحت أوراقاً متناثرة ونصف وجه يترصده الدخان.. وانطلقت أسير في الشوارع، أتلمس الحيطان والأبواب إلى أن دفعني جمع غفير إلى المقبرة حيث يدفن الأحياء موتاهم ويقرأون المراثي ويقبلون هيكل الخرافة... تركتهم والقبور ولم يتملكني رعب المثوى الأخير.. وابتسمت للصفصافة أتملى جذعها وأطرب لارتعاش أوراقها ثم يستيقظ

البحر في سراديبي وترعد سمائي.. تهيجني الأمطار فأقبل الطين وأذوب في أنوثة الريح.. غادرت المقبرة لأفك رموز القاعة الكبرى ورسوم المنديل.. قلت لأحد الكلاب السائبة: «الآن مات جدي» ولكن الأرض كالمرأة إذا هجرت أجدبت وفقدت شهوتها، والأشجار أطفال إذا تيتموا وطردوا من الأحضان داستهم الأقدام وصاروا جثثاً أوغاداً.. ولم أفكر في زيارة الحقول، خفت من الأشجار تفترسني لتثأر لنفسها من الغدر والطيور تهاجمني وحيداً لتقطع دابري، فتمسكت بالشارع وحركات الوجوه والسيارات والكلاب السائبة.. أدركت بعد خوف سنين أن أحداث القاعة الكبرى لا تعد أسراراً، وعلمت أن الجدب لا يلد حياة والمكر مآله المكر ثم الموت، والريح تحمل ذاكرتي مطر عشق والموج أقوى من الصخر والشجر يتركب الجبل والشمس تكنس الظلال والذئب يموت ذئباً وإن دجنوه قروناً...

ولكن المنديل يدعوني إليه.. ذكرتني الخطوط بطفل كان ينام على شاطىء جزيرة منسية، وكنت أنا الطفل الاحتمال أتجمع في هدير الموج لأولد في عصر قادم.

المرآة في المرآة نفق يفضي إلى قاعة مترية... ويهلك الرجال في يوم عاصف، يبتلع الركام الهياكل العظمية وتحول القاعة إلى متحف أثري، ولكني امرأة العشق القديم لا تزال تعانق مجدها وتغني. أعود إليها في المرآة كلما اشتد وجعي، ويبتلعني رحمها المهجور لأنام دقائق كي أعود من جديد إلى خريف الشارع.

تونس

دار الآداب

تقدم

أدونيس

في

كلام البدايات

دراسات

صدر حديثا